European Journal of Humanities and Educational Advancements (EJHEA)
Available Online at: https://www.scholarzest.com
Vol. 5 No.08, August 2024
ISSN: 2660-5589

THE IMAGE OF WOMEN IN THE NOVELS OF TAHA HUSSEIN-THE NOVELS (ADEEB - DUAA AL-KARAWAN - THE TREE OF MISERY) AS AN EXAMPLE

Dr. Hayder Jassem Lafta Al-Saedi
Ministry of Education / General Directorate of Education in Maysan
hhsder602@gmail.com

Article history:
Received: June 6th 2024
Accepted: July 4th 2024

Abstract:
The topic of (women) is considered one of the most prominent topics that the writer Taha Hussein was interested in. He gave it great importance and used it as a mirror that reflects the development of customs and traditions in Egyptian society at that time, and presented the stages of women's liberation and integration into society and their involvement in practical, political and intellectual life. This study dealt with the image of women through his autobiographical books and some of his novels, including (Adeeb's novel, Duaa Al-Karawan's novel, and The Tree of Misery novel), which mentioned multiple images and diverse forms of women in the countryside, the city, and Europe, which represented a true reflection of his broad culture, psychological tendencies, and an effect of his experiences after his return from the mission. This study adopted the analytical descriptive approach to reach the image of women that the writer Taha Hussein saw.

Keywords: Women, Novels, Duaa Al-Karawan, Tree of Misery, Taha Hussein

صورة المرأة في الأعمال الروائية عند طه حسين
روايات (أديب - دعاء الكروان- شجرة البؤس) إنموذجاً

حيدر جاسم لفتة الساعدي
وزارة التربية/ المديرية العامة لتربية ميسان
hhsder602@gmail.com

الملخص
يُعتبر موضوع (المرأة) أحد أبرز الموضوعات التي اهتم بها الأديب طه حسين فقد منحه أهمية كبيرة، واستخدمُه كمرآةٍ تعكسُ تطور العادات والتقاليد في المجتمع المصري آنذاك، وعرضَ مراحل تحرير المرأة واندماجها في المجتمع وانخراطها في الحياة العملية والسياسية والفكرية. فقد تناولت هذه الدراسة صورة المرأة من خلال كتبه الذاتية وبعض رواياته منها (رواية أديب، ورواية دعاء الكروان، ورواية شجرة البؤس) التي ذكرت صوراً متعددة واشكالاً متنوعة للمرأة في الريف والمدينة، واوروبا والتي كانت تمثل انعكاساً صادقاً لثقافتهِ الواسعة، وميوله النفسي، وأثراً من آثار تجاربه بعد عودته من البعثة. واعتمدت هذه الدراسة المنهج التحليلي الوصفي للوصول إلى صورة المرأة التي كان يراها الأديب طه حسين.
الكلمات المفتاحية: المرأة، الأعمال الروائية، دعاء الكروان، شجرة البؤس، طه حسين.

المقدمة

شكلت المرأة دوراً هاماً في حياة طه حسين، منذُ طفولتهِ وحين صباه، ثم يافعاً، شاباً إلى اكتمال الرجولة، ثم زوجاً وأستاذاً وأباً. فأمهُ بحنوها الغامر على وليدها الضرير، واستجابتها لمشاعر الطفولة البائسة الحزينة، كانت تلمس فيه شغاف القلب، وتحرك فيه خفقات الوجدان، ولولا هذا الحنان ما تحمل قسوة الأيام وحرمانه من أغلى نعمةٍ يهبها الله للبشر، وهي نعمة البصر(1).

ومنذ سنوات الطفولة، كان الحب في أشكاله الطفولية، منجاة من الوحدة الضارية، وأول صوت التصق بذهن الفتى الصغير في طفولته، علق وانطبع بعقله الباطن، كان من المرأة، حيث كانت أصوات النساء وهن يعدن إلى بيوتهن، وقد ملأن جرارهن من الفتاة تجلجل بالغناء "الله يا ليل .. الله"، فيعرف الفتى أن الفجر قد بزغ ...» (2).

وكانت تراوده صورٌ أخرى لنساء بائسات عرفهن في القرية والأسرة، وكان يعرف وضع المرأة الاجتماعي في الريف ويتمنى لو أنها تتحرر من الجهل، والفقر، والضعف، وكان يرى أن الفقر هو عدو المرأة الأول، فالمرأة الفقيرة ضعيفة مستسلمة للأقدار، غارقةٌ في جهلها، ليضيع عليها الفقر كرامتها ويعمل على إذلالها(3). فالمرأة الريفية لا تعرف من أين تأخذ العلم، وهذا دليلٌ على الجهل، ومما يُظهر هذا أن النساء تستفتي فقهاء لا يملكون من العلم الصحيح شيئاً «وكان النساء يتحدثن إليهم ويستفتينهم في أمور الصوم والصلاة وما إلى ذلك من أمورهن»(4).

وهناك صورةٌ أخرى مرتبطة بهذه النوعية يرسمها طه حسين للمرأة وهي تقع تحت تأثير الخرافة، فهي تعيش بعقلية خرافية تؤمن بالأساطير «وطبيعي أن يكون الإيمان بالخرافات مسيطراً على عقول النساء أكثر من سيطرته على عقول الرجال، فأما من نشأت في رحاب التدين فخرافتها تتخذ مسوح الدين، وأما من لم تنشأ في رحاب التدين فخرافاتها تتجه إلى العالم السفلي وما فيه قوات الجن والشياطين»(5). ومن النماذج الحقيقية التي يصادفها في حياته هو ما يعرضهُ في الجزء الثالث من كتاب الأيام، وهو مثال للفتاة المصرية المعاصرة المتحضرة المثقفة التي نالت حظاً من التعليم، وكانت نبوية موسى أولى هذه الشخصيات؛ فيصف لنا جوانب من

شخصيتها، وهو يقص علينا لقاءهُ بها عند أستاذه أحمد لطفي السيد «فقد لقي عنده ذات يوم تلك الفتاة التي كان الناس يتحدثون عنها فيكثرون الحديث لا لأنها كانت جميلة فاتنة، ولا لأنها جذابة خلابة، ولكن لأنها كانت طامحة ملحة في الطموح، ظفرت لأول مرة بالشهادة الثانوية وكانت أول فتاة ظفرت بها»[6]. وترتد به الصورة للوراء ليعقد مقارنة بينها وبين بنات قريته قائلاً: «وكان الفتى قد لقى السيدات في بيئته تلك الريفية، ولكنه لم يلق منهن القارئة الكاتبة البارزة التي تظهر في مجالس الرجال وتحاورهم، فتلج في المحاورة وتخاصمهم فتعنف في الخصام قبل أن يلقى بهذه الفتاة»[7].

ومما سبق نلاحظ إن طه حسين صاحب نظرة تنويرية، وهو إذ يعرض لنا نماذج المرأة، نجده ساخطاً على وضع المرأة الريفية، وهو يرنو إلى المرأة المتعلمة المثقفة التي تتسم بقوة الشخصية والجرأة، ويرى أن الفقر أيضاً أهم أعداء المرأة لأنه قد يوصلها إلى السقوط والانحراف[8].

مدخل تمهيدي

تُعد قضية المرأة من أول اهتمامات طه حسين لموقفه المتمرد في كثير من الأمور فموقفه من المرأة هنا اتفق فيه مع فكر (قاسم أمين) في وقت اختلف فيه مع فكر عبد العزيز جاويش الذي انتمى إليه في الحزب الوطني حينئذ، فبعد أن تحدث طويلاً في عدة مقالات عن المرأة وحريتها من وجهة نظر الإسلام انتهى إلى نتيجة مؤداها أن «العلم الصحيح يؤيد الحرية ويمقت الرق» وهو ما يفهم منه أنه لم يؤيد الحجاب، فقد أعتبره نوع من الرق، والاستعباد الذي لا يزال قائماً، وقد استطرد من هذا إلى أن «رقي المسلمين رهين بأن يرجعوا إلى أصول دينهم الذي أهملوه .»[9] ويلاحظ أن موقف طه حسين تركز على محورين اثنين:

المحور الاول: حرية المرأة.

المحور الثاني: تربية المرأة.

- أما **بالنسبة لحرية المرأة** فقد راح يؤكد أن الإسلام «لم يأخذ بحجاب ولا نقاب»[10]. أي أنه لخص حكم الإسلام في المرأة وحريتها فقال لا فرق بين المرأة والرجل في الحرية، وكلاهما مأمورٌ بمكارم الأخلاق فنهى عن مساوئها، محظور عليها أن تتعرض لمظان الشبه، «فالمرأة لا تخلو بالأجنبي ولا تسافر وحدها، ولا تتبرج تبرج الجاهلية الأولى، ولها بعد ذلك أن تفعل ما تشاء في غير إثم ولا لغو، لها أن ترفع النقاب وتطرح الحجاب، وتتمتع بلذات الحياة كما يتمتع الرجل، وليس عليها إلا أن تقوم بما أخذت به من الواجب لنفسها وزوجها والنوع الإنساني كافة»[11].

متعمداً ترديد هذه العبارة في كتاباته التالية بشكل حرفي أو بتورية، وهو ما يؤكد أنه لم يلتزم التفسير الظاهري للآية القرآنية التي نزلت من أجل حجاب زوجات الرسول (فاسألوهن من وراء حجاب)، إذ أن التفسير الصحيح للآية يؤكد على أن الذي خصص بها زوجات النبي – صلى الله عليه وسلم- على أثر حادثة وقعت، فخصصت الآية على عدم الدخول إلى نسائه أو التحدث إليهن، فإذا كان لابد من الحديث فلابد أن يكون من وراء حجاب، وعلى هذا النحو، فإن موقف طه حسين هنا يبدو متحرراً بالنسبة إلى عصره[12].

- أما **موقفه من التربية** تبلور بعد عودته من البعثة، فبعد أن عاد من الغرب زاد تحمسه لحقوق المرأة وخاض معركة تربيتها والدفاع عن هذا الرأي، فالتعليم لازم للتقدم والرقي، وقد زاد هذا الرأي ترديداً في فترة الثلاثينات حيث كان يحيا فترة تربص الأعداء به وكراهيتهم له بشكل مخلوط، وتسقط أفكاره لمحاربته بها، إذا أخذ يولي اهتماماً كبيراً لتربية المرأة، فنادى "بحق المرأة في التعليم حتى أكبر الدرجات العلمية" وقد أشار إلى ضرورة «إباحة التعليم العالي للفتاة العربية»[13].

وقد تمثلت ثمرة كفاحه حين قبلت كلية الآداب عدداً من الفتيات لأول مرة في تاريخ الكلية، كما لم يتردد في تقديم الفتاة الجامعية إلى الجمهور في أول حفل أقيم خصيصاً لهذه المناسبة في "الاتحاد النسائي" والأكثر من هذا، أنه أتاح لبعض الفتيات فرصة الدراسة في باريس[14].

فقد واجه طه حسين الكثير من المتاعب لموقفه من المرأة ، فحين اشتد الجدل حول اختلاط الطالبات بالطلبة في الجامعة، ووجهت إليه اتهامات مدبرة من إسماعيل صدقي ورجاله إذ اتهم "بالاختلاط الجنسي" في معاهد التعليم، بل إن كلية الآداب في هذه الفترة تسمى بكلية (العواهر) كما يعاب عليه أنه قبل ثلاثمائة طالبة وهو عميد للكلية، كما أثيرت ضده أكثر من مظاهرة من جراء دفاعه عن قضية تعليم المرأة واحترام حقوقها التي تساوي حقوق الرجل «عقلاً وقلباً وشعوراً وضميراً فهي تفكر كما يفكر الرجل، وهي تشعر كما يشعر وهي تحب الخير كما يحب"[15].

وتحمس طه حسين لتربية المرأة وتعليمها دفعة إلى أن يذهب إلى مدرج الكلية وتصحبه زوجته ليدخلا في نقاش مع الطالبات لتغيير بعض العادات القديمة، وموقف طه حسين "المتحرر من تعليم المرأة كان وراءه التفسير الذي يمكن الخروج به من احتفاله بتخرج الطبقة الأولى من الفتيات من كليتي الآداب والحقوق وظفرهن بدرجة الليسانس، وهذا الحماس الشديد نجده في مقالته التي وضع لها عنوان (فوز)، إذ رأى في هذا الفوز «حدثاً خطيراً في حياتنا المصرية والعقلية والاجتماعية، وأي فوز عظيم هذا الفوز لأنصار الرقي والنهضة وأصحاب تحرير المرأة والمساواة بينها وبين الرجل في الحقوق والواجبات»[16].

روايات طه حسين

أولاً: رواية أديب:

يرى البعض أن رواية (أديب) قد تنسب إلى رواية الترجمة الذاتية أكثر منها رواية فنية[17]، وأنا أرى أن هذه الرائعة قد جمعت بين الترجمة الذاتية وحملت كثيراً من سمات الرواية الفنية.

فقد لعبت المرأة في هذه الرواية دوراً بارزاً وإن كانت صورة المرأة فيها تبدو مضغوطة ومختفية في ظل الأفكار والمناقشات الفلسفية التي تحاول أن تعرضها وتعالجها.

والشخصيات النسائية في هذه الرواية تقع في بيئتين مختلفتين، فالبيئة الأولى هي ريف مصر، والبيئة الثانية هي فرنسا، ومدنها المختلفة.

ونظرة طه حسين في الريف المصري للمرأة وخاصة في الصعيد هي نفس النظرة التي عبر عنها في أيامه، فالمرأة تعاني نوعاً من الظلم والحرمان فالنساء يذهبن إلى الإبراهيمية ليملأن جرارهن، ويعدن منها وقد أثقلت رؤوسهن هذه الجرار[18].

فالمرأة واقعة في براثن العمل الشاق، وأضحت وكأنها أداة من أدوات الإنتاج، وما ذاك إلا نتيجة حتمية للحالة الاقتصادية والفقر المدقع الذي حجب جمال المرأة الريفية، ورقتها، وأظهر جمالاً من نوع آخر وهو ما عبر عنه بقوله «حين يكون الحصاد، وحين يشتد النشاط، وحين تنتشر في ريفنا هؤلاء الفتيات الفقيرات الحسان، يطوفن بالحقول، ويلتمس أقواتهن في التقاط ما يسقط من الحب، إنك لتعلم كلفي بالخروج في هذا الفصل، واني أجد لذة حارة حادة في الاستمتاع بهذا الجمال الطبيعي الذي تسبغه الحياة العاملة الجادة على أهل الريف حين يخرجون من أطوار الخمود والجمود ويغنون في طبيعتهم هذه ويصبحون وكأنهم أدوات للعمل والإنتاج لهم جد الأداة وصدقها واستقامتها وصبرها وإعراضها عن الشكوى، وبعدها عن الملل والسأم[19].

والمرأة في الريف ليس لها حظ من رأي، أو إرادة، حتى ولو كان الأمر متعلقاً بأخص خصائصها، ويكفي أنها تجبر على الزواج بمن يراه الأهل مناسباً دونما إبداء رأي أو تعليق، وعندما يحدث ما يخالف هذه الأعراف يعتبر خروجاً وتمرداً [20].

فالمرأة في الريف بعد الزواج خادمة مطيعة تقع عند قدمي الزوج، وتلبي له كل ما يريد وما يطلب منها دون مناقشة أو حتى استيضاح، وإنما هي الطاعة العمياء، وخير من يمثل هذا النموذج في أديب هي حميدة تلك الزوجة المخلصة التي تعطي ولا تأخذ،

وهذا ما نراه في وصفها «الزوج التي أضفتك ودها، ومنحتك حبها، ووقف حياتها عليك»[21]. أو في وصفها في موضع آخر بالتي «تتكلف النوم وهي مستيقظة، ولكنها لا تريد أن تؤذيك، ولا تشق عليك ولا أن تلقي في روعك أنها تأرق حتى تعود لغرفتك، فالله يعلم أنها لا تأرق إلا انتظارًا لك وشوقًا إليك»[22]، أو في قوله «فلم تكن حميدة زوجة فحسب ولكنها كانت منعمة على منقذة لي»[23].

فهي صورة من صور المرأة، وهي تمثل الزوجة التي تعطي دائماً وتمنح بالاستمرار، وربما كان المقابل هو الجحود والنكران والظلم، وهو ما تعرضت له (حميدة) بالفعل.

فالمرأة المصرية خاصة في ريف مصر كما يراها طه حسين تقع تحت ظلمٍ بيّن، وجورٍ واضح.

كما يعرض لنا طه حسين نماذج من صور مختلفة لشرائح متعددة وكلهن تعرضن لحياة غير مستقرة، فزوجة سيدنا تزوجت من بعده بمن كان يدور حول بيتها في حياة زوجها «وفقدت أم غريب زوجها الضرير، ثم انتقلت مع أبنائها إلى حيث لا يعلم أحد، وطارت أم محمود مع غوى من أهل المدينة، ذهب بها إلى حيث لا ينكر الناس عليه غوايته، ولقيت زنوبة من دهرها شراً ونكراً فخانها زوجها جهرة بعد أن كان يخونها سراً، وأثر عليها بنت أخيها الفتاة، ثم مضى الدهر في تنكره لها ومكره بها ففقدت بصرها، وعاشت أعواماً لا ترى النور، ثم رأفت بها الأيام فأخرجتها من هذا العالم الذي لا يكمل الصفو فيه»[24].

ونلاحظ أن هذه الشخصيات النسائية تمثل صورة مخزية للمرأة في المجتمع المصري والريف خاصة، وهي إن كانت نماذج غير سائدة، إلا أنها شرائح موجودة أخرجتها الحياة الظالمة التي يلمح طه حسين أنها السبب المباشر فيما وصلت إليه هذه الشخصيات النسائية، حيث يرى أن الفقر والجهل كانا السبب الرئيسي فيما وصلت إليه المرأة، من ترد وصولاً إلى عدم الوفاء الذي صادف زوجة سيدنا الشابة، ومروراً بأم غريب التي لم يعرف لها ولا لأسرتها مصير، ومن بعدها أم محمود التي انحرفت في طريق الغواية، وزنوبة التي لقيت ما لقيت من جراء جهلٍ وفقر، وضعف، من بدايتها إلى نهايتها.

وفي ظل الطموح يقيم طه حسين مقارنة بين المرأة الهابطة المستسلمة لقدرها ولبيئتها الظالمة، وبين المرأة الفرنسية أو الأوربية في باريس ومدن فرنسا، فهي على ما فيها من عوج وإغراق إلا أنها تنعم بحرية واردة كما وصفها الأديب بداية من الخادم (فرنند) بقوله «والفتاة تتحدث، والحديث ينبعث من فمها حلواً عذباً رقيقاً، أحاول الآن أن ألتمس له تشبيهاً فلا أظفر بما التمس، وإنما أصور لك الشعور الذي وجدته حين كان يصل هذا الحديث إليّ ويغمرني فيملئني دعة وراحة ولذة وهدوءً، كنت أشعر كأن إنساناً يرسل إليّ نفحات متصلة من الطيب تأخذني من كل مكان، وكنت أحاول أن أرد عليها بعض الحديث فلا أجد إلى ذلك سبيلاً، لأنها لم تكن تمكنني من ذلك من جهة، ولأني لم أكن أريد أن أقطع هذه اللذة من جهة أخرى»[25].

وإن كان طه حسين يرى أنه من الواجب أن نحاول الاقتداء بالحضارة الغربية في مظاهر رقيها وتقدمها إلا أنه كان يرى أيضاً تمسك الشرق بمبادئه وقيمه أمراً ضرورياً، ولذا فهو معجب بالغرب على حذر، ومشفق على الشرق في تحفظ.

ولقد اتخذ من (حميدة) رمزاً للشرق، ومن (فرنند) رمزاً للغرب فيقول: «إني سأقضي الليل إن أويت إلى فراشي، لعبةٍ لصورتين مختلفتين أشد الاختلاف؛ إحداهما تخيفني حتى تبلغ بي أقصى الخوف، والأخرى تغريني حتى تنتهي بي غاية الإغراء، أحدهما (حميدة) البائسة، والأخرى هذه الفتاة الخادم التي لا أعرف من أمرها شيئاً إلا أنها جميلة رشيقة حلوة الحديث، خفيفة الروح، تحمل الطعام وتبسم للأضياف كلا، كلا! إني لأكذب عليك، وأكذب على نفسي، إني لأعرف من أمرها أكثر من هذا. إن اسمها (فرنند) [26]. وإن كانت (فرنند) بكل هذه الصفات المبهرة، إلا أن الحذر واجبٌ من مكرها ومكر أمثالها «فأمثال (فرنند) كثير في كل فندق وفي كل مدينة، وفي كل بيئة، فاحذر أن تتعرض لمكرهن»[27].

فهو الإحساس بالمفارقة بين حضارة الشرق الروحية وحضارة الغرب المادية، وهو الصراع النفسي من أجل الوصول إلى الحق في مراميه.

ثانياً: دعـاء الكـروان:

تمثل رواية (دعاء الكروان) صورة رائعة لكفاح الطبقة الفقيرة من أجل التغلب على واقعها، ولتضحيتها في سبيل الارتفاع بمستواها، وانفساح الأمل أمامها في الالتحام بالطبقة الأعلى، عن طريق الثقافة، وطرح الحقد من جانب الطبقة الدنيا، وعن طريق الوعي الإنساني والتعاطف من جانب الطبقة العليا[28].

فمراحل التطور والنمو الذي لحق هذه الشخصية يسير وفق خطة مرسومة المعالم، (فآمنة) في بدايتها فتاة بدوية ساذجة تعيش بين فقر أتى على جمالها، وقبح صورتها، وجهل أضر بعقلها وفطنتها، فقد كانت فتاة «بائسة يائسة قد شوه البؤس واليأس شكلها وألقيا على وجهها غشاء كئيباً من الدمامة والقبح»[29].

وتمثل (آمنة) في نهاية القصة «صوت العقل الذي يتبين وجه الظلم، ويحسر عنه القناع، ويلقي علينا الموعظة»[30]، من خلال أزمتين متصلتين؛ الأولى سببت تشردها الاجتماعي، والثانية أحدثت ضياعها العاطفي.

الأولى تشكل التقاليد والعرف البالي الذي قضى على ثلاث حرائر أن يتشردن في الآفاق بسبب أب فاسق، ويصور هذا العرف في سيف الخال ناصر الشيطان الذي قتل (هنادي)، وهذه الحادثة توحي بقدر من السخرية من بعض القيم البالية الموروثة التي تشكل حياتها دون أن تشجبها.

أما الثانية فهي سوء الوضع الاقتصادي وما استتبعه من عبودية للطبقة الوسطى، وآمنة تعي ذلك جيداً حين تذكر «ومضت أيام قليلة، ولكنها ثقيلة كانت أمناً تدور فيها بنفسها على البيوت تعرض نفسها للخدمة كما تعرض الإماء على السادة.

ولا شك أن هذا الإحساس بالتفاوت الطبقي هو الذي مهد لسقوط (هنادي)، وبالتالي لتجسيم هذا السقوط في صورة مأساوية، كانت شخصية آمنة تتحرك على جبهات عدة تتعامل معها بخوف وحذر واشتياق وأمل، مما أكسبها حيوية وقدرة واعية على إدارة الحركة حتى لا تسقط مثل (هنادي)، لذلك لا تفهم صورة آمنة إلا إذا حملناها طيف (هنادي) وشبح مأساتها[31]. وتشير شخصية (هنادي) إلى صورة المرأة الجامحة، ولكن دون أن تستهين بالعرف والقيم؛ فقد تجمح المرأة متصدية للحياة من غير أن تكون مستهينة بما فيها من قيم، وإنما هي مسلوبة المقاومة أمام الإغراء مسوقة بدافع من رغبة وجدانها وفطريتها مع شيء غير قليل من الأسى، لما كلفتها هذه الفطرة من الجموح والخروج على الأوضاع.

تحملها أمها على الرحيل عن المدينة التي نزلت فيها منساقةً لإغراء الشباب، والجمال، والترف، عاملة في بيت ذلك المهندس القاهري الشاب الثري، ولكن هنادي لا تحب الرحيل ولا تحن إلى الغرب، وإنما تحن إلى هذا الشرق الذي تركت قلبها فيه، هنالك في ذلك البيت الجميل الذي تحيط به هذه الحديقة الواسعة ... في هذا البيت تركت قلبها [32].

وشخصية الأم زهرة، تكتسب نفس الملامح التي عرضتها الأيام، وهي في دعاء الكروان تبدو صارمة حاسمة، ولذلك فهي تأمر وتنهي «إذا كان الغد فسنرحل عن المدينة المشؤمة ... إذا كان يؤذيك فراقهم فأقيمي فسنرحل نحن»[33].

بمثل هذه العبارات الشديدة الحاسمة كانت ترد وتجيب وتجادل من طرف وحيد كما تصفها آمنة «وماذا تريد أمناً هذه التي تأمر وتنهي في لهجة حازمة صارمة، وإيجاز مقتصد لا يقبل حواراً ولا جدالاً؟!»[34].

ولذا تنكر (هنادي) على أمها قسوتها، خاصة عندما وجدت من أختها عطفاً ورحمة، ولذا تقول لها حينئذ: «لقد كنت أحب أن أكون بهذا المكان من أمي لا منك أنت أيتها الأخت الصغيرة»[35]. ورغم أن طه حسين يحمل هذه الأم الكثير من تبعات الموقف، ويقسو

عليها في حكمه إلا أنه كان يشفق عليها مرات، وذلك من جراء الحياة الصعبة التي عاشتها «فهذه المرأة التي لم تبلغ الشيخوخة بعد، ولكنها قد فرضت على نفسها حياة الشيوخ: حرمان متصل، وانصراف عن كل ما في الحياة من لذة، وإعراض عن كل ما في الحياة من متاع، واكتفاء بما يقيم الأود، ولا يدني من الموت، ونظر متصل إلى هذا الماضي القريب الذي يملأهُ الحزن ويفعمه الأسى، وتضطرم فيه هذه النيران التي تحرق قلب المرأة حين تحب، فلا يسعفها الحب، ولا تلقى ممن تحب إلا خيانة، وخداعاً وغدراً، وإنها لفي ذلك محزونة لأمها، بائسة من غدها، معرضة عن يومها، وإذا الحياة تتكشف لها عن خطب جديد ثقيل ليس أقل نكراً ولا أهون أمراً من تلك الخطوب التي بلتها في حياتها الماضية، فهي تنظر وراءها فلا ترى إلا ظلمة وتنظر أمامها فلا ترى إلا ظلمة وتنظر عن يمين وشمال فلا تجد عوناً ولا نصيراً»[36].

لقد كان طه حسين يرى أن جهل الأم وربما قسوتها في بعض الأحيان توصل الأبناء إلى شعور بغيض تجاه الأم، وإن كان لا يخلو من شفقة ورحمة بضعفها، وخير ما يصور هذه العلاقة موقف (آمنة) من أمها حالة مرضها، فتقول: «ولكن هذه أمي تدنو مني وعلى وجهها الكئيب شيء من آيات الرضا، وهي تقول لي في هذا الصوت الذي يخيل أنني لم أسمعه منذ زمن بعيد: لقد نمت الليلة كلها يا آمنة، فأنت بارئة، وما أرى إلا أنك ستسرعين نحو الشفاء، ليتها لم تقبل علي، وقد ألقى بين نفسها ونفسي سور صفيق فهما لا تلتقيان»[37]. تقول آمنة تصف حالها مع أمها أو انهمرت دموعها غزيرة سخينة ولكن بكاءها لم يدع بكائي وحزنها لم يثر حزني فقد كان بين نفسها وبيني سور صفيق[38].

وأخيراً أن رواية (دعاء الكروان) تمثل كفاح الطبقة الفقيرة من أجل تحسين وضعها والتحامها بالطبقة التي تعلوها مما يكلف بعض التضحيات، وبخاصة إذا لم تأخذ المحاولة الطريق القويم الذي من شأنه أن يصول إلى النجاح، كما حدث لهنادي التي طمعت في الالتصاق بالطبقة الأعلى ممثلة في المهندس دون أن تسلك لهذا الالتصاق الطريق القاصد فكانت النتيجة أن زلت وقتلت هذا على حين يستطيع البعض أن يفرض نفسه على الطبقة الأعلى، وذلك إذا تثقف وطرح الحقد وسلك سبيل المعرفة، والحب كما كان من آمنة، حين تطورت بالثقافة التي أتاحتها لها صاحبتها خديجة، و زمالتها لها في تلقي دروسها الخصوصية، واستذكار علومها في المنزل، وحين ساعد على تطورها هذا الحب الذي اقتلع من قلبها أشواك الشر ونمى مكانها زهور الخير. على أن نصف النجاح متوقف –كما تشير الرواية- على مدى وعي الطبقة الأعلى ومقدار تعاطفها مع أبناء الطبقة الفقيرة، فلابد من إسهام أبناء الطبقة العليا في عملية تذويب الفوارق بين الطبقات، وذلك بالوعي الإنساني والتعاطف مع أبناء الطبقة الكادحة، وتغيير النظرة إلى أبناء هذه الطبقة، من اعتبارهم خدماً لهم، ووظيفتهم إمتاعهم وتجميل حياتهم، إلى اعتبارهم مواطنين مثلهم، دورهم تحقيق الحياة الكريمة لأنفسهم والمجتمع الذي فيه يعيشون، ففي هذا الوعي والتعاطف، ومع تلك النظرة المنصفة، يكون خير الجميع، وتحقيق السعادة الحقيقية لأبناء الطبقة العليا أنفسهم.

وقد ركز المؤلف هذه الفكرة حول المهندس الذي يمثل الطبقة الأعلى، فهو حين كانت نظرته إلى من دونه نظرة طبقية متعالية، كان مادياً آثماً، هاتكاً للأعراض، مضيعاً، يحيا لنزواته، ويعيش ليومه، وحين وعى وتعاطف وصارت نظرته إلى من دونه نظرة إنصاف وإكبار وحب، أصبح إنساناً ذا قلب، فيه شرف، وله أمل، يعمل لغده، ويسعى لتحقيق عيش مستقر كريم[39].

ثالثاً: شجرة البؤس:

إن رواية شجرة البؤس تعالج قضايا تتصل بالمرأة بأكثر من سبيل فمن هذه القضايا المعروضة والمطروحة في ثنايا الرواية وأطرافها على كثرة ما فيها من ثنايا، وما بها من أطراف، قضية زواج البنت على غير رغبتها ودون إذنها، وربما كانت هذه أهم القضايا التي عرضتها الرواية، حيث أن طه حسين رأى أن زواج (نفيسة) من خالد كان شجرة البؤس التي ظلت تؤتي أكلها حتى نهاية القصة، وهو ما قالته (منى) عندما رفضت (جلنار) الزواج، فقد قالت: إن شجرة البؤس مازالت تؤتي ثمارها[40]، وإن كانت (منى) قد قالت ذلك في نهاية القصة؛ فإن أم خالد قد قالت في بدايتها، وهي تخاطب زوجها: «إنك لم تزد على أن تغرس في دارك شجرة البؤس»[41].

لقد تزوجت (نفيسة) ولم يكن لها رأي في هذا الزواج، وإنما تم حرصاً على ألا تضيع الثروة بين والد الفتى ووالد الفتاة، واعتماداً على فهم مشوه للدين، فعندما اعترضت أم خالد على زوجها تلا عليها الآية الكريمة {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً}[42]، كما أنه برر وصايته عليها بقوله «ناقصات عقل ودين»[43].

وقد كان من قبل يقول «أوليس قد أمر الشيخ»[44]. غير أن زوجته صارحته بالحقيقة بأنه لا يتزوج ابنه من ابنة صاحبه وإنما يزوج نفسه من ثروة صاحبه فهو يضحي بهذين البائسين ليشارك في هذه الثروة الضخمة والمال العريض»[45]، ومن ثم كان زواجاً منكراً لم تجن منه الأسرتان إلا شراً ونكراً، وكنت أولى ثماره موت أم خالد كمداً وغماً، ثم توترت العلاقة بين الزوجين، وأصيبت الزوجة بالجنون من جراء هذا الزوج الذي لم ترده[46]، كما لجأ الزوج إلى الزواج مرة أخرى بعد أن حدثته نفسه بالإثم رغم أنه كان متدنياً إلى حد، وثمة زيجة أخرى قد تمت دون رأي الفتاة ورغبتها وهي زيجة (سميحة) فلم تكد تبلغ الخامسة عشر حتى عادت إلى مدينتها الأولى لتزف فيها إلى زوج له شيء من ثراء ومكانة، ولكن له بنين وبنات تركتهم له امرأته الأولى، فاستأنفت سميحة حياة ثالثة فلم تكن هذه الحياة إلا حزناً متصلاً وعذاباً مقيماً»[47].

كما تكررت الأحداث مع (تفيده) فقد تزوجت دون أن تستشار في أمر زواجها، وكانت النتيجة مشابهة لما حدث لنفيسة وابنتها (سميحة) فقد لقيت (تفيده) من زوجها ما لقيت وابتأست في حياتها ابتأست[48]، ودائماً ما ينتهي مثل هذا الزواج بالبؤس.

ما ومن الأمور التي عرضت لها الرواية بعض التقاليد البغيضة المسيئة والتي كانت منتشرة في المجتمع كخطبة الأطفال وهم صغار بعد، وما قد يسببه ذلك من مشاكل وأمراض اجتماعية متعددة، وآية ذلك «أن جلنار، لم تكد تبلغ الشهر السادس من عمرها حتى خطبتها (زبيدة) لابنها سالم وكان سالم في الثانية من عمره[49]، والخطبة في سن صغيرة كانت أمراً شائعاً، وقد تكون الفتاة أكبر من ذلك ولكنها في سن لا يسمح لها بالاختيار وإبداء الرأي، فهذه منى قد خطبت «وهي لم تبلغ طور الزواج بعد»[50]، كما قد يتم الزواج في سن لا تستطيع معه الفتاة أن تعي أعباء الزواج أو تدرك مسئوليته وتكاليفه، كما حدث لسميحة حيث تزوجت ولم تكد تبلغ الخامسة عشر من عمرها «لتزف فيها إلى زوج له شيء من ثراء ومكانة، ولكن له بنين وبنات تركتهم له امرأته الأولى[51].

فهي لم تتزوج من شاب يقاربها سناً ولكنها تزوجت بمن يكبرها وهو متزوج من قبل وله أبناء وبنات، وهنا تتعرض المرأة لمشكلة أخرى وهي الفارق العمري والذي قد يؤدي إلى ظهور كثير من السلبيات التي يتعرض لها مثل الزواج من موت الزوج مبكراً وتركه للأسرة أو عدم قدرته على رعاية الأسرة وتلبية احتياجات الزوجة مما قد يجر إلى آثار مدمرة، وقد تسيطر الزوجة الشابة على زوجها الكهل وما يتبع ذلك من مشاكل، قد تنجم في محيط الأسرة، وهذا ما حدث من هناء التي لم تبلغ العشرين عندما تزوجت من علي، وقد ناهز الستين فهناء قد «استأثرت بعقل الشيخ وقلبه وتحكمت فيه تحكماً لم يعرفه قط من إحدى نسائه وكادت تصرفه عما فرض على نفسه من العدل بين أزواجه لولا أنه أخذ نفسه بالعنف واشترى رضا (هناء) عن هذا العدل بكثير من الهدايا والمنح، فحفظ ذلك زوجيه الآخرين، وجعل منزله جحيماً»[52].

وقد ناقش طه حسين في شجرة البؤس قضية الجمال والقبح من طرف خفي ظاهر، وآية ظهورها أنها تكاد تسيطر على أحداث القصة، أو هي عمودها الفقري الذي أقيمت عليه، وقد ناقشها طه حسين من خلال (أم خالد) التي قاومت وعارضت زواج ابنها بفتاة

قبيحة دميمة (نفيسة)، ولكن أم خالد بعد إتمام الزواج أخذت تبين لابنها أن الجمال الحسي قد يأتي بنتائج عكسية غير مرضية «وإنما كانت تتحدث إليه بأن الشباب لا ينبغي أن يلتمسوا عند أزواجهن جمالاً ولا حسناً، فإن الجمال فتنة والحسن محنة، ويوشك الذي يلتمس الحسن والجمال عند زوجه أن يعرض نفسه لكثير من المكروه، إنما يلتمس الشاب عند امرأته قرينة تؤنس وحدته، وإما ترزقه الولد، ومدبرة لبيته، ومربية لبنيه»[53].

ولم ينسى طه حسين أن يطلعنا في روايته على بعض العادات السيئة التي كان النساء يقعن فيها، ومنها ما يتصل بالجن وإخراج العفاريت من أجسادهن، وذلك ما حدث في محاولة علاج (نفيسة) اعتقاداً بأنها ممسوسة «فعمات خالد ونساء أبيه قد ملأن الدار يطوفن بالبخور مُهمهمات، مُتمتمات، منهن من تدعو الله ومنهن من تدعو الشيطان وقد اجترأت إحداهن فذكرت حفل الزار، ولكن (علياً) ثار لذلك وزجر النساء زجراً عنيفاً[54].

ولم يكن (علي) يرفض هذا من النساء فحسب «فلم يكن يعجبه تشبثهن بالقبور وتمسحهن بالأضرحة وإلحاحهن على الأولياء فيما كن يطلبن إليهم من قضاء الآراب وتحقيق الآمال[55].

ولا يجب أن ينسينا هذا الحديث نظرة طه حسين للمرأة في هذا الزمن، وفي ذلك المجتمع، ويتضح ذلك من خلال رواياته التي عرضناها والتي صورت الحرمان الذي تعرضت له المرأة في ظل مجتمع لا يوفر لها سبيل السعادة الحقة، وقد كان يرى طه حسين أن المرأة في عمومها مظلومة مقهورة، وهذه اللوحة المعبرة عن حال المرأة في الزمان والمكان، وذلك قوله:

«ورأى الضحى ذات يوم بعد حين من الدهر نسوة مجتمعات يبكين ويتباكين، وما أكثر دعاء النساء لدموعهن! وما أيسر ما تستجيب الدموع لهن إذا دعونها، رأى الضحى ذات يوم هؤلاء النسوة مجتمعات يبكين أو يتباكين، ولم تكن فيهن (إلا أيم أو مطلقة)" [56].

وفي الختام لابد أن نشير إلى أن د. طه حسين يعد رمزاً للثقافة المصرية والعربية، لأنه الرجل الذي تصدى للشر ونذر حياته لاستئصال جذور الخرافة، فقد كان يعلم أن التخلف والجهل والتعصب والاستبداد رؤوس ثابتة بين كتفي شيطان واحد، وأنه إذا قطع رأساً، سينبت مكانه غيره، لأن الأصل قائم والجذور ممتدة، وأنه لن ينتصر على آفة واحدة من هذه الآفات، إلا إذا أهوى عليها جميعاً بضربة تطيح بالرأس كله[57].

الخاتمة:

مازالت أعمال طه حسين سخية بالعطاء، وكلما اقترب الدارس منها انفتحت أمامه نوافذ يطل منها على فكرٍ ناضجٍ وعلم مستنير وقيمٌ رائعةٌ.

صورة المرأة في الاعمال الروائية عند طه حسين ألقت الضوء على شخصيتهِ فقد أظهرته في مواجهة خصومه ومنتقديه، وخاصة على الصعيد الديني الذي كثيراً ما عرّضه للهجوم من أدعياء التدين وأصحاب الجمود الفكري.

3 - نلاحظ أن طه حسين لم يخرج عن حدود الدين وتعاليمه، وإنما كان يستند على أركانهِ ويرتكز على نصوصهِ، ومما يؤكد أن طه حسين كان ملتزماً بأدب الدين وأخلاقه أنه لم يصف المرأة في أعماله وصفاً حسياً أو جسدياً وإنما عرضها ككيان له قيمته الحضارية والثقافية ومكانتها في المجتمع وما لها من حقوق وما عليها من واجبات.

4 - كما أنه أشار إلى حقها في التعليم   وكان يسعى إلى أن تضع الدولة سياسة موحدة للتعليم بشتى أنواعه، حتى لا يقع الخلط والاضطراب، وقد حرص على طلب العلم بكل السبل، وتولى بنفسه مسئولية التعليم في مصر.

5 - كما أنه كان داعماً للغة العربية وداعياً إلى التحدث باللغة العربية الفصحى، مما لا شك فيه أن اللغة العربية من فم الدكتور طه حسين لها مذاقها الخاص، وهو نفسه له أسلوبه الذي يخالف به غيره.

6 - في هذه الأعمال الروائية رسم طه حسين صورة المرأة وكيف كان وضعها في ذلك الوقت، ورسم لوحات عديدة توضح ما كانت تتعرض له من ظلم وقهر وحرمان في تلك الفترة.

الهوامش

1 – المرأة في حياة طه حسين، مديحه أبو زيد، الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2010م، ص 14.

2 – المرجع السابق، ص 15.

3 – طه حسين بين السيرة والترجمة الدكتورة رشيدة مهران، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 1977م، ص 74.

4 – الأيام، ج1، ص 86.

5 – طه حسين كما يعرفه كُتاب عصره، د. عبد الرحمن صوفي، دار الهلال، ص18 .

6 – المرجع السابق، ج3، ص 26، 27.

7 – المرجع السابق، ج3، ص 27.

8 – طه حسين بين السيرة والترجمة، د. رشيدة مهران، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1977م، ص75.

9 – المفكر والأمير طه حسين والسلطة في مصر (1919 – 1973)، الدكتور مصطفى عبد الغني، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2005م، ص 260.

10 – المرجع السابق، ص 260.

11 – الهداية ، يناير 1911، مقالة (كلمات في المرأة)، طه حسين، السيد تقي الدين أنور الجندي، ج1، ص 39، 44.

12 – المفكر والأمير، طه حسين والسلطة في مصر، د. مصطفى عبد الغني، ص 261.

13 – المرجع السابق، ص 262.

14 – المرجع نفسه، ص 262.

15 – المفكر والأمير طه حسين والسلطة في مصر، د. مصطفى عبد الغني، ص 262.
16 – المرجع السابق، ص 263.
17 – انظر تطور الرواية العربية الحديثة، د. عبد المحسن طه، دار المعارف، ط 1977م، ص 317.
18 – أديب، د. طه حسين، الهيئة العامة المصرية للكتاب، ط 1998م، ص 98.
19 – أديب، د. طه حسين، ص 52 – 53.
20 – أديب، د. طه حسين، ص 127 – 128.
21 – المرجع السابق، ص 86.
22 – المرجع السابق، ص 97.
23 – المرجع السابق، ص 126.
24 – أديب، طه حسين، ص 63 – 64.
25 – أديب، طه حسين، ص 138 .
26– المرجع السابق، ص 148 – 149.
27 – المرجع السابق، ص 169 – 170.
28 – الأدب القصصي والمسرحي في مصر، د. أحمد هيكل، دار المعارف، 1979م، ص 214.
29 – دعاء الكروان، د. طه حسين، الهيئة المصرية العامة المصرية للكتاب، ط 2001م، ص 13.
30 – دراسات في الرواية المصرية، د. علي الراعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 1979م، ص 141.
31 – صورة المرأة في الرواية العربية، الدكتور طه وادي، دار المعارف، ط 1980م، ص 99 –100.
32 – طه حسين كما يعرفه كتاب عصره، الدكتور صوفي عبد الله، دار الهلال، ص 232 – 234.
33 – دعاء الكروان، طه حسين، ص 20 – 21.
34 – دعاء الكروان، ص 31.
35 – المرجع السابق، ص 26.
36 – المرجع السابق، ص 30.
37 – دعاء الكروان، ص 72 – 73.
38 – المرجع السابق، ص 74.
39 – الأدب القصصي والمسرحي في مصر، د. أحمد هيكل، دار المعارف، ط 1979م، ص 219، 220.
40 – شجرة البؤس، طه حسين، دار المعارف، طبعة 58، ص 187.
41 – المرجع السابق، ص 21.
42 – من سورة الاحزاب الآية 36 .
43 شجرة البؤس، طه حسين، ص 18.
44 – المرجع السابق، ص 20.
45 – المرجع السابق، ص 103.
46 – المرجع السابق، ص 153.
47 – المرجع السابق، ص 187.
48 – المرجع السابق، ص 63.
49 – شجرة البؤس، طه حسين، ص 77.
50 – المرجع السابق، ص 153.
51 – المرجع السابق، ص 82.

52 – شجرة البؤس، طه حسين، ص 22.

53 – المرجع السابق، ص 42.

54 – المرجع السابق، ص 23

55 – شجرة البؤس، طه حسين، ص 187.

56 – المرأة في حياة طه حسين، د. مديحة أبو زيد، ص 90.

المصادر والمراجع:

1- الأدب القصصي والمسرحي في مصر، الدكتور أحمد هيكل، القاهرة، دار المعارف، الطبعة الثالثة 1979م.

2- أديب، د. طه حسين، الهيئة العامة المصرية للكتاب، ط 1998م.

3- تطور الرواية العربية الحديثة، د. عبد المحسن طه، دار المعارف، ط 1977م.

4- دراسات في الرواية المصرية، د. علي الراعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 1979م.

5- دعاء الكروان، د. طه حسين، الهيئة المصرية العامة المصرية للكتاب، ط 2001م.

6- شجرة البؤس، طه حسين، دار المعارف، طبعة 58.

7- صورة المرأة في الرواية العربية، الدكتور طه وادي، دار المعارف، ط 1980م .

8- طه حسين بين السيرة والترجمة، دكتورة رشيدة مهران، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 1977م .

9- طه حسين كما يعرفه كُتاب عصره، مجموعة من المؤلفين، دار الهلال، (د،ت)

10- المرأة في حياة طه حسين، مديحه أبو زيد، الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2010م .

11- المفكر والأمير (طه حسين والسلطة في مصر، 1919 – 1973م)، الدكتور مصطفى عبد الغني، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2005م .

12- الهداية ، يناير 1911، مقالة (كلمات في المرأة)، طه حسين، السيد تقي الدين أنور الجندي، ج1.